و (٩) الاطل يقال ما ذاق لهُ اطلاً أي شيئاً وهو مصحف الاكل و (١٠) التفردة وهو مصحف النقدة بمعنى الكزبرة والكرويا كما قال الازهري . قلت لا بدَّ من استقراء هذه المصحفات ونشرها في المجلات صرفاً للكتّاب عن استعمالها

بيروت سعيد الخوري الشرتوني

الكاهن والملك في مشهد التاريخ

في اتحاد الكاهن والملك

وفي هذا الفصل نرى الملك والكاهن جالسين متصافحين على ان اعينهما على العامة مخافة قيامهم . وهاك شرح الحالة

بعد ذلك الصدام الهائل الذي ثار في جو التاريخ غبارهُ فحجب شمس الحقيقة عن عيون الناظرين اختبر كلٌّ من الكاهن والملك قوة الآخر وشدَّة بأسهِ . فتعذَّر على الكاهن وقد عضتهُ انياب الحرم ان يلوي ذراع اخيهِ الفتى الذي اشتدَّ ساعدهُ وزاد خبرة في الفنون الحربية وفي عُمدة اركانهِ . على انَّ هذا ايضاً تعذَّر عليهِ استئصال شأفة اخيهِ الشيخ لتأصل جذورهِ في تربة الاجتماع البشري . فاكتفى باذلالهِ اولاً . على انهُ فطن الى ما وراء ذلك من الخطر اذ خشي من العامَّة سوء المنقلب عملاً بعواطف الحب والاحترام لرئيسهم الروحي الذي ارضعهم لبان الدين والتقوى . وقد رأوا من ذلهِ في هرمهِ ما انساهم سيئات صباهُ . ويضاف الى ذلك سطوة التعصُّب الديني في الهيئة الواطئة التي يحملها على التحزُّب لرئيسها ضعف المبدإ ولو كان ذلك الرئيس مذنباً . هذه كانت هواجس الملك . فرأى ان يتدارك الامر بالتي هي احسن . ولقد اصاب فان رد الفعل من النواميس الحاكمة على الاخلاق حكمها على الميول . ومن تعمَّق في فلسفة الاكوان رأى وحدة النواميس في الماديات والروحيَّات او تفرعها عن اصل واحد فكأنَّ الكون مؤلف من جوهر واحد بسيط تنوَّعت صور تراكيبهِ لتأثير قوة بهِ لا وسيلة لنا لاكتشافها بالحواس وفي ذلك من الاهمية ما فيهِ . فخشي الملك أن تنقلب عواطف الجمهور عليهِ فيرموا بهِ من حالق . وقد ظهر ذلك الانفعال في فرنسا سنة ١٨١٥ برجوع البوربون وعود التعصُّب الديني والغيرة الدينية الى ما كانت عليهِ قبل الثورة وزيادة . فما ذكر وما لم يذكر من الاسباب حمل الملك على العدول عن خطتهِ الاولى — سحق الكاهن — وابدل اهانتهُ لهُ بمظاهر الحفاوة والاكرام لمصالحهُ وعقد معهُ صلحاً . واصطلح

ميسور متى كسرت شوكة احد المحاربين . بخلافا على ما رأيت في بداية الفصل — شأن المتلين الذين يتصالحون بعد ما يتلون الحرب . وحقًّا ان حوادث الكون الاجمالية تمثل لنا رواية من اغرب ما تصوّرت العقول

فابرقت اسرّة الجمهور وبردت حرقة قلوبهم التي كانت تلتظي في صدورهم وحمدوا ربهم على انتهاء الازمة وبشروا انفسهم بحلول العصر الذهبي الذي تم فيه السعادة ارضنا كما انبأ الانبياء الكرام والفلاسفة العظام . وخيل لهم ان السعادة حصلت باتحاد الدين والسياسة . والمتوقعون السعادة في هذا العالم بذلك الاتحاد ليسوا بقليلين . على انهُ طاش سهمهم وساء فألهم . لانهُ ثبت ان ذلك الاتحاد شر حوادث الدنيا وعلة نوائبها . فانهُ لم ينشأ عن توبة نصوحة في الكاهن ولا عن عفة صحيحة في الملك ولا عن غيرة صادقة في الاثنين على مصلحة الجمهور. فشمر الملك ساعدهُ لتأييد صولة الدين ورفع الكاهن صوتهُ واعظًا ومنذرًا بالخضوع للملك ثم عمدا الى رشوة الجمهور وذلك على خلاف المألوف . وكيفية الرشوة انهما فتحا في ساحة المدينة سوقًا تباع فيها الرتب والالقاب السياسية والدينية بابخس الاثمان . وكلما فتح احد عينيهِ لانتقاد احوال عصره وبلاده رأى في ساحة الهيئة من صنوف المراتب والمناصب ووسائل الفخر والعظمة المنشأة بتعاضد السياسة والديانة ما يشغل عقلهُ وقلبهُ عن كل مشروع اصلاحي . فصفا لها الجو بعد عبوسهِ واصبح تسلطهما على الضمائر امرًا ميسورًا . وتفننت بذكر فضائلهما السنة الشعراء ونطقت بتقريظ محامدهما اقلام البلغاء . ولكن متى رأيت الملوك رؤساء الدين ورجال الدين اعوان السيف فبشّر الامة بالدمار . واني ارى اغترار الامة بذلك كالاعمى المبرد اغترارًا بما عليهِ من الدماء وهو يتبعها لسانهُ . وان انحطاط الامة يقاس بتهافتها على الرتب والمظاهر الفخيمة وهي لاهية عن النظر في شؤونها المعاشية . ولا تصلح حال امة ما لم تصرف نظرها عن المدح الى الجد وعن القول الى العمل وعن التقاليد الى الحقائق لانهُ على الحقائق وليس الا عليها تشاد العظمة الحقيقية

وخلاصة ما حدث في اوائل هذا الفصل انقسام الامة في مشهد التاريخ الى قسمين . الاولى الحاكمة وفيها رجال الدين والسياسة والثانية المحكومة وفيها التجار والزارعون والمحترفون والاطباء وهي القسم الاكبر وفيها حياة الامة . ومن الغريب سيادة تلك عليها واحتكارها موارد ثروتها المحصلة بعرق الجبين وكد اليمين . فتمتعت بها ناعمة البال ولها على اختها الرعناء الفضل والمنة ولا تحسب خدمة الجمهور واتعابهُ شيئًا بالنسبة الى نظرة ابتسام منها ولو كانت تلك الابتسامة هزءًا واحتقارًا

وان ولد الدهر نابغة قبل زمانهِ وكانت بين جنبيهِ روح اشرف من ان تؤخذ بالتملق والتدليس وقصد رفع الغواشي عن محيا الحقيقة قضي عليهِ بامر الكاهن والملك ومات شهيد الحق المنبوذ باسم الكفر او الثورة وحل عليهِ القضاء المبرم كسقراط الفيلسوف اليوناني وشيشرون الخطيب الروماني وساڤنارولا الواعظ الايطالياني ويوحنا هس المصلح الالماني وغيرهم في سائر الامصار والاعصار الذين كانوا في حلك الجهالة كواكب الهدى فحجبتهم عن العيون غيوم الاستبداد الكثيفة المساقة بريح الاغراض النفسانية . فيا لعوج الطبع البشري

ومن اسهل الامور على القوة المتحدة اعدام ايٍّ شاءت بدون ادنى احتساب لانها تثبت عليهِ من انواع الجرائم ما يثير الجمهور عليهِ فيصرخون بحمية — اهلكوا الكفار — استأصلوا البثرات الخبيثة . صونوا حياة ولي نعمتنا من ايدي المغتالين — ادفعوا عن الدولة والوطن — الى غير ذلك من الاقوال . وويل لمن اصابهُ تيار التعصب والتحيز من جمهور اعمى لقادة دهاة . ومن لي باعلام الجمهور ان عائدة صياحهِ عليهِ لانها تحرمهُ نخبة اعوانهِ وخيرة اخوانهِ فيكون بذلك قد سعى الى حتفهِ بظلفهِ . واذا راجعت تاريخ الاستبداد لا تجد من قضي عليهِ الاَّ باحد الجرمين — الكفر او الخروج على الحاكم — مع ان كثيرين منهم براء منهما كغاليلي الذي قضي عليهِ لان الله كشف لعقلهِ ان الارض هي التي تدور لا الشمس كما كانوا يزعمون . ولو اتيح لاولي التعصب اليوم ما اتيح لهم يومئذٍ لقضوا على فلاسفة الاعصر الحديثة قضاءهم على غاليلي وهم يحسبون انهم يحسنون

على ان نور الحقيقة يستحيل اخفاؤهُ فقد اخذ يتألق في سماء الافكار من خلال غيوم الاستبداد . فايقن الجمهور باغترارهِ وفهم ان اتحاد الدين والسياسة من شر النوائب . ولكن ما الحيل وقد تكبل بالقيود والاغلال . ويا ويل من حكمهُ ظالموهُ وظلمهُ حاكموهُ فان نتيجة شكواهُ زيادة بلواهُ . وهيهات ان يثبت احد في ميدان كهذا ترتعد لدى اهوالهِ جبابرة القتال . وقد كانت فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر مشهداً لذلك كما هو معلوم عند المتصفحين تاريخها

على ان الاختبار اثبت ايضاً ان ذلك الاتحاد كان وبالاً على الدين والسياسة اكثر مما على الجمهور . فان الناس اذ لم يتجرأوا على مناوأتهما جهاراً خوفاً من العقاب تشبثوا باطناً بمعتقداتهم . ولا قوة في العالم تتغلب على المعتقد . فمقتوا الدين وآلهُ والسياسة واعوانها . فانهم لما رأوا الملك واقفاً نفسهُ لخدمة الدين وهم لم يأنسوا فيهِ روح الايثار الذي هو لباب الدين الحقيقي وخلاصتهُ فهموا ان ذلك التدين احبولة لصيد النفوس . فلجأوا الى الرياء

والموارية الى ان قوي ساعدهم فقام الانكليز على ملكهم في اواسط القرن السابع عشر واذاقوه كاس الحمام وفعل الفرنسويون فعلهم في اواخر القرن الثامن عشر وحدث مثل ذلك في كوبا ونيلبين في اواخر القرن التاسع عشر

ولا اقصد في ما بسطتهُ من الافكار الحطّ من كرامة الاديان وهيبة الحاكمين لاني من رجال الدين القائلين بوجوب الطاعة لله وللحكام . ولكني اثبت حقائق تاريخية راهنة خلاصتها ان مزج الدين بالدنيا يفسد الاثنين

وخلاصة ما يقال هنا ان المشهد التاريخي ختم بسقوط الكاهن والملك امام قوة الجمهور فخابت آمال المستبدين ولم تتم سعادتهما لا في اختلافهما ولا في ائتلافهما . ولو لم يكن الداعي اليهما من غريزيات الطبع ولوازم الحضارة لزالا من عالم الوجود ولكن التاريخ ابو العجائب . فقد اظهر ان الجمهور يقصد الاصلاح لا غير . فثلَّ عرشي الملك والكاهن ليشيد لهما ما هو افضل من ذلك . فلاحت في نور الواقعات التاريخية الحقيقة الفلسفية التي كثيرًا ما اغفلها المؤرخون وهي ان الدين والسياسة جُعلا لاصلاح الجمهور وتهذيبه . والجمهور جعل لاصلاح الدين والسياسة وتهذيبهما

وقالوا ان الثورة ليست دليل التوحش في الشعب الافرنسي بل بينة الارتقاء فيهم وفي الانكليز الذين سبقوهم الى ذلك بنحو قرن ونصف . وانما التوحش والموت الادبي والمدني والابدي عنوان الامم الراضخة للجور والاعتساف مئات من السنين غير شاعرة بحالتها . وقد رسموا سير التاريخ في دائرتين متراكزتين الواحدة تمثل الديانة والثانية تمثل السياسة وكل دائرة مؤلفة من حلقات متصلة فحلقات دائرة الديانة هي الدين . الرسوم الدينية . الاوهام . الكفر . التصوف . الاصلاح الدين . وحلقات السياسة هي القانون . الظلم . الثورة . الحرية . الفوضى . الاصلاح القانون

في انفصال الكاهن عن الملك

في هذا الفصل ظهر كلٌّ من ممثلي الدين والسياسة في مكانهِ الخاص مقتصرًا على شؤونه غير متعرض لما يختص باخيهِ الّا لدى الاقتضاء وضمن حد الاعتدال . وقد أُتيح لهما ان قيامهما ثانية كان بيد الجمهور الذي نعدها النهاية . فاعتدلت لهجتها ولانت عريكتهما ولاذا بالرصانة والوقار واخلصا القصد والنية في خدمة الجمهور . وتعلّما ان الاخلاص عنوان الشرف وخلاصة الادب ومجد النفوس ومصدر النعمة وحياة الانسانيَّة وعماد المدنيَّة وروح الاصلاح . فاخلصا الود للجمهور . فظهر ان الثورة عليهما كانت بركة لهما وللجمهور . فهي دليل حياة الجمهور

ووسيلة لتنقية دم الهيئة والنظام فهي كهدم بيت قديم قصد ترميمهِ . وان المبادئ الحسنة كازهار الربيع تنبت في جهات عديدة . وان الحياة الادبية تستدعي الحرية المدنية . وان السيطرة على الافكار تميت الفضيلة الشخصية . وان الذاتية اس العمران . وفصل الديانة عن السياسة هو الوضع الطبيعي اللائق بهما والحال الوحيدة الموافقة لها وللجمهور . وذلك يتضح من النظر في غرضها الاساسي . فغرض الدين العلاقة بالعالم الروحي وتربية العواطف الادبية . وغرض السياسة ادارة الشؤون المعاشية والاجتماعية وصيانة الآداب الظاهرة . فالدين منفصل عن السياسة فلسفيًّا . واذا مسَّها فضمن دائرة محدودة . وعليهِ قيادة الناس الى السلام . ومتى نفخ بوق الحرب لم يبقَ دين . والديانة السياسية هي ديانة الخاصَّة لا ديانة الجمهور . وهي ليست لاجل الآخرة بل لاجل الدنيا

وكما ان تعرُّض السياسة للدين مضر بهِ كذلك تعرُّض الدين للسياسة مضرٌّ بها . كما حدث لكمبيز الفارسي في مصر وانطيوخوس ابيفانيس في اورشليم . فالاول اهان الثور ابيس معبود المصريين فثاروا عليهِ . والثاني تعرَّض لامور اليهود الدينية وهم اشدُّ الناس تمسكًا بتقاليدهم فهاجوا عليهِ وابلوا في عسكرهِ واستقلُّوا وهم نفر قليل وهو ربُّ القبائل والامصار من بلاد النيل الى وادي الفنج ومن صحراء العرب الى بلاد القوقاس . وبعكس ذلك دولة انكلترا التي يخضع لها الآن اكثر من اربعمئة مليون من البشر فانها سائدة بحكمتها ونزاهتها وعدم تعرُّضها للاديان

جاء في تاريخ البطالسة . "ومما وفقهم في سياستهم انهم لم يغيّروا من قوانين المصريين السياسيَّة والدينيَّة الاَّ ما ندر . وتركوا امورهم الداخلية تجري على الخط القديم ولا سيما الدينية . فانهم اكرموا دين المصريين واقاموا عبادتهم القديمة باحتفالات باهرة ورعوا هياكلهم فلذلك اطاعهم المصريون فندرت الخيانة في ايامهم كل الندرة مع انها كانت كثيرة في ايام دولة الفرس . فقبل المصريون عوائد اليونان شيئًا فشيئًا وامتد تمدُّنهم في البلاد وذلك مما لم يسبق لهُ نظير في ايام تسلط الظالمين وهذا احسن مثال للحكام"

والخلاصة ان المجتمع الانساني لا يحصل على الراحة والحريَّة الاَّ بوقوف كل من خادم السياسة وخادم الدين عند حدودهِ والاقتصار على الوسائل التي يسوغها العقل والقانون في تنفيذ مطالبهِ واحراز رغائبهِ . وبذلك يحصل الجمهور على السعادة القصوى في هذه الدنيا

حمص باحث عصري